

نماذج من صناديق خشبية جزائرية 12-13هـ/18-19م: دراسة فنية

د.ة/ شريفة طيان ساحد
أستاذة محاضرة
معهد الآثار - جامعة الجزائر 2

Résumé : Cet article a pour but de montrer la richesse muséale algérienne en matière d'objets d'art appartenant à la période ottomane ; ces objets sont façonnés de différentes matières premières (cuivre, bronze, bois, verre...) et parmi les objets qui ont attiré notre attention, ce sont les coffres en bois qui représentent une partie importante de notre patrimoine archéologique. Cette étude vise aussi à mettre en valeur l'art du bois et la place qu'occupaient les coffres dans le mobilier algérien à l'époque ottomane.

يحتل الصندوق مكانة خاصة وأهمية بالغة في أثاث البيت الجزائري، و قد وجد على عدّة أشكال وأحجام، استخدمته المرأة في حفظ ملابسها و أدواتها و مجوهراتها و أدوات خاصة بالخياطة و باقي الأغراض الأخرى، فتتوّعت أشكاله و تقنيات صنعه و زخرفته، يصنع في غالب الأحيان من مادة ليّنة و خفيفة حتى يسهل نقله.

لاحظ الرحالة فونمالتسان لدى زيارته للجزائر، صناديق خشبية شبيهها بحقيبة الثياب، تقوم مقام الخزانة ذات الأدراج، و هي مصبوغة باللون الأحمر و مزخرفة بالنقش العربي المذهب¹. كما وجدت صناديق يطغى عليها اللونان الوردي و الأخضر التفاحي²، بالإضافة إلى صناديق دقيقة الصنع و مذهّبة بثرأ و مصبوغة بجودة عالية كما يؤكّده Rozet M. لمّا وصف أثاث قصر الداوي و الصناديق المذهّبة و المرصّعة بقطع الصدف و مزخرفة باللؤلؤ و حراشف السلاحف³.

كما عرفت الجزائر صناديق مصنوعة من خشب الأرز مزخرفة بأسلوب الحفر، منقّدة بطريقة عالية و بدقة كبيرة، و أخرى مطعّمة و مرصّعة بالعاج و الصدف⁴. المقصود بهذه الصناديق هي الصناديق الكبيرة الحجم المثبتة في الجدار، الصعبة التحريك و المخصصة لحفظ الملابس و غيرها من الأغراض الأخرى⁵.

¹ هاينز تيس فونمالتسان، ثلاث سنوات إقامة في شمال غرب إفريقيا ترجمة: (أبو العيد دودو) ، ج.1. الجزائر، 1973، ص 30.

² Boyer P., La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française, Hachette, Paris, 1963, p. 152.

³ Rozet M., Voyage dans la régence d'Alger, t. 3, Alger, 1833, p. 125.

⁴ Boyer P., Op. Cit., p. 152.

⁵ شريفة طيان، الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني، ج.1، رسالة لنيل شهادة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2007-

2008 ص186.

عرف هذا النوع من الصناديق في مناطق القبائل أيضا، لكنه مصنوع من خشب الصنوبر نظرا لوفرته بصورة كبيرة بالمنطقة⁶. كما أن اختياره لهذا النوع من الصناعة لم يتم عشوائيا وإنما لمزاياه اللاتقة المعروفة بالليونة وسهولة الحفر فيه⁷.

يندرج ضمن الصندوق أنواع أخرى تعرف بالعلبة أو الصندوقة، صغيرة الحجم تحتوي على غطاء ذي أشكال مختلفة ومتنوعة فمنها المسطح والهرمي والدائري وغيره...، كما يحتوي البعض منها على أدراج مختلفة الأحجام، يخصص كل درج لوظيفة معينة موضوعة أفقيا أو عموديا. زد إلى ذلك وجود علب بقاعدة مسطحة وأخرى بقاعدة مرتفعة عبارة عن أرجل مختلفة الأشكال تتماشى و شكل العلبة العام، وغالبا ما تطعم وترصع بالعاج أو الصدف.

يظهر من خلال البحث أن الصناديق المزخرفة بأسلوب الصبغ أي الملونة مخصصة لحفظ الملابس، بينما الصناديق المطعمة والمرصعة فهي مخصصة لحفظ الحلي والمجوهرات والمصوغات⁸. تميّزت هذه التحف بغناها و ثراها بالمواضيع الزخرفية، قوامها أشكال نباتية بالدرجة الأولى وأشكال هندسية وأشكال حيوانية خاصة عنصر الطيور، محوّرة أو طبيعية إلى جانب زخرفتها بالطرازين الرومي والهاتاي⁹. نفذت هذه المواضيع الزخرفية بأساليب زخرفية متنوعة كالحفر والتخريم و الصبغ والتطعيم والترصيع والزخرفة المسمارية.

لقد تم اختيار خمسة نماذج لصناديق يعود معظمها للقرنين 12-13هـ / 18-19م محفوظة بالمتحف الوطني الآثار القديمة و المتحف الوطني للفنون و التقاليد الشعبية، بالجزائر العاصمة. تتميز بتنوع أحجامها وأشكالها و وظائفها، بالإضافة إلى تنوع أساليبها الزخرفية، ناهيك عن المواضيع الزخرفية الغنية التي تؤكد براعة الفنان الجزائري في انجازها بدقة كبيرة.

النموذج الأول: (صور: 1-2-3)

صندوق خشبي خاص بالعروسة مستطيل الشكل (113,5 سم × 54 سم، ارتفاع: 66 سم، الغطاء: 121 سم × 55,5 سم)، يرتكز على أربعة قوائم صغيرة زخرفت بأزهار الورد و الياسمين والنرجس. زخرف الصندوق بأسلوب الصبغ كليا و تبقى الواجهة الأمامية هي الأكثر أهمية بسبب تلف بعض الزخارف في الجهات الأخرى، قوام هذه الزخارف أشكال نباتية و حيوانية و هندسية منقّدة بأسلوبين طبيعي و محوّر.

⁶ Gast M. et Assie Y., Des coffres puniques aux coffres kabyles, Paris, 1993, p. 31

⁷ شريفة طيان، المرجع السابق، ص 186.

⁸ نفسه، ص 186.

⁹ نفسه، ص 183.

يتوسّط الواجهة الأمامية معيّن كبير بداخله مزهرية مخروطية الشكل مزينة بأوراق رمحية ومفصّصة بلون أخضر قاتم، يتفرّع من المزهرية ورود حمراء و أزهار الأقحوان باهتة اللون و القرنفل منقّدة باللون الأزرق الفاتح، و اللاله باللون الأحمر الفاتح بالإضافة إلى أزهار الحودان و الياسمين و براعم الورود و أزهار النفل ذات الأربع بتلات، و أوراق بسيطة و مفصّصة و ثلاثية و معقوفة، حيث ملأت كل المساحة التي تعلو و تحيط بالمزهرية، و من جانبيها رسم لطائري اليمامة متقابلين و هما في حالة طيران. كما زخرفت حواف المعيّن بأزهار اللؤلؤ و الأقحوان بشكل متناوب مفصولة بأوراق بسيطة وثلاثية.

أما بالنسبة للأركان الخارجية للمعّين فقد شغلت بموضوعين الأول علوي و الثاني سفلي يتضمّن الموضوع العلوي زخارف نباتية قوامها أزهار النسرين و اللاله و الورد و الياسمين، تتخللها أوراق مختلفة الأحجام و الأشكال، رسم في الجانب السفلي منها طير البيغاء يدير رأسه نحو الخلف و هو في حالة حركة، يتدلى من منقاره فرع نباتي و زهرة اللاله (يتكرّر نفس الموضوع من الجانب الآخر).

فيما يخص الموضوع السفلي فهو متكرر في الجانبين، زخارفه هي نفس الزخارف السابقة الذكر لكنها رسمت في حيّز أصغر و رسم ببغاء بدون حركة بينما الآخر يهب للحركة، يتدلى من منقاريهما زهرة النسرين، وعلى جانبي الطائرين رسمت سمكتان متقابلتان يتوسطان أزهار و أوراق.

دعم الصندوق بوصلات نحاسية كمثرية الشكل يتخلّلها فرع نباتي متكوّن من زهرة اللؤلؤ و وريقات و يعلوها ورقة الأكنتس، بينما وصلة المفتاح فيختلف شكلها عن الوصلات الأخرى لتأخذ نفس شكل المزهرية.

زخرف مركز الصندوق من جانبيه بجامة دائرية كبيرة الحجم تتوسطها زخرفة نباتية قوامها أزهار الورد مغلقة و مرسومة جانبية و أخرى متفتحة، و ملئت كل المساحة بأوراق و ورود صغيرة، يتوسطها وصلة تحتوي على مقبض.

زخرف الغطاء بأشكال نباتية كثيرة الشبه بزخارف الواجهة إلا أنه طمس الكثير منها. كما زين داخل الغطاء بفروع نباتية طبيعية عبارة عن أوراق متعددة الأشكال.

المراجع:

- شريفة طيان، المرجع السابق، ج.2، ص 552-554.



صورة رقم: 1- صندوق خاص بالعروس من مدينة الجزائر (12- 13 هـ / 18-19 م)
محفوظ بالمتحف الوطني للآثار - الجزائر - رقم الجرد: II.B.46



صورة رقم: 2 - زخارف الواجهة الأمامية



صورة رقم: 3- تفاصيل زخرفية

النموذج الثاني: (صورة:4)

صندوق خشبي مستطيل الشكل (100 سم × 59 سم، ارتفاع: 69 سم، الغطاء: 105,5 سم × 54,5 سم). يتكوّن من واجهة أمامية رئيسية و أخرى خلفية و مجنبتان بالإضافة إلى الغطاء و القوائم الأربعة.

زخرفت الواجهة الأمامية دون غيرها بزخارف يغلب عليها الأشكال الهندسية تماشيا و أسلوب الزخرفة بالمسامير التي تتطلب هذا النوع من الزخرفة، زخرف أسفل الصندوق بوصلة معدنية على شكل جذع مزينة بمسامير، يعلوها قبة مدببة الجانبين تنتهي بأنصاف دوائر، يوجد على جانبيها نصف عقد محدّد بنفس شكل الوصلة السابقة. يعلو الوصلة المركزية نجمة سداسية الرؤوس، تنتهي بأخرى معدنية مفصّصة مثبتة في الصندوق بواسطة مسامير مدبّبة، حدّدت النجمة بجامات دائرية وبأشجار سرو متّصلة بجامات بواسطة صف من المسامير. حدّد هذا الموضوع الزخرفي من جانبيه بسلسلة من المسامير ليظهر موضوعان آخران مكرّران، عبارة عن ثلاث وصلات موضوعة أفقيا و مثبتة بمسامير على شكل زهرة متناوبة مع جامات دائرية، حدّد الموضوع الرئيسي في حواف الصندوق بمسامير زهرية الشكل، أما بالنسبة لجهات الصندوق الأخرى فهي خالية من الزخرفة.

المراجع:

- شريفة طيان، المرجع السابق، ج.2، ص 560-562.



صورة رقم: 4 - صندوق ذو زخارف مسامير من مدينة قسنطينة (12- 13 هـ / 18-19 م) محفوظ بالمتحف الوطني

للآثار القديمة رقم الجرد: II. B. 56

النموذج الثالث: (الصورتان: 5-6)

صندوق صغير الحجم مستطيل الشكل (56 سم × 30 سم، ارتفاع: 5, 50 سم). يتركز على أربعة قوائم و يعلوه غطاء على شكل مصطبة، زخرف بزخارف مخرّمة و محفورة.

قوام الزخرفة أشكال نباتية و هندسية روعي فيها التناظر و التناسق بين الوحدات الزخرفية، كما أنها اتّسمت بالدقة و الإتقان. طغت الزخرفة الهندسية في كل أجزاء الصندوق بينما الزخرفة النباتية فقد استعملت لتحديد الموضوع الرئيسي الذي يقوم على أشكال متشابكة و متضافرة و عقد تكوّنت من خلالها زخرفة مخرمة عبارة عن مربعات و معينات و أشكال سداسية و خماسية منفذة بتقنيتي التجميع والتعشيق، بالإضافة إلى سلسلة من حبيبات اللؤلؤ التي وضعت في القوائم كإطار لتحديد الزخرفة النباتية.

لقد نقّدت هذه الأخيرة في القوائم كما سبق ذكره و في الغطاء، قوامها مراوح نخيلية مزدوجة ومركّبة معقوفة الطرف، كوّنّت موضوعا زخرفيا متشابكا و متناسقا منفذ بأسلوب الحفر، حيث تبدو فيه الزخرفة بارزة، أما بالنسبة للغطاء فقد وجدت في إطاره وهي عبارة عن شريطين متناظرين مفصولين بزهرة النفل، و متكوّنان من نفس أشكال المراوح النخيلية السابقة الذكر لكن يتخلّل البعض منها أوراق ثلاثية.

المراجع:

- شريفة طيان، المرجع السابق، ج.2، ص 565-567.



صورة رقم: 6 - المظهر الجانبي للصندوق

محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة، رقم الجرد: II.B.102



صورة رقم: 5 - الواجهة الأمامية للصندوق من مدينة الجزائر

(12- 13 هـ / 18-19 م)

محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة، رقم الجرد: II.B.102

صندوقة من الخشب مستطيلة الشكل (32 سم × 20 سم، ارتفاع: 25 سم) يعلوها غطاء على شكل مصطبة، و ترتكز على قوائم. طعمت الصندوقة بمادتي العاج و الصدف على زخارف نباتية، قوامها إلتواءات و فروع نباتية ملتوية منفذة بأسلوب الحز، تتوسطها أوراق نباتية بسيطة و مدببة الطرف مطعمة بالصدف، أما بالنسبة للعاج فقد وجد في أعلى الغطاء كإطار لتحديد الزخرفة، أما بالنسبة للأساليب الزخرفية فقد نفذ في القطعة التطعيم و الترصيع و الحز.

المراجع:

- شريفة طيان، المرجع السابق، ج.2، ص 562-564.



صورة رقم: 7- الواجهة الأمامية للصندوقة من مدينة الجزائر (12 هـ / 18 م)

محفوظة بالمتحف الوطني للآثار القديمة، رقم الجرد: II. B. 99



صورة رقم: 8- غطاء الصندوقة

النموذج الخامس: (الصورة:9)

صندوقة مستطيلة الشكل (35 × 12 سم، ارتفاع: 14 سم) تحتوي على قاعدة ترتكز على قوائم صغيرة، ويعلوها غطاء مسطح، قسّم داخله إلى ثلاث خانات غير متساوية، يحتوي على درج متحرك يمكن نزعه و رفعه بالإضافة إلى مرآة ملتصقة بالغطاء.

ركّبت الصندوقة بواسطة وصلات حديدية، و تحتوي الواجهة الأمامية على قفل يتوسط شكل زخرفي نباتي عبارة عن زهرة الرمان مطعمة بالصدف.

زخرفت الصندوقة بأسلوب التطعيم على أشكال هندسية و نباتية، محدّدة بأسلاك معدنية لإبرازها. قوام الأشكال النباتية عبارة عن وريقات متّصلة فيما بينها مكوّنة فروع ملتوية و مراوح نخيلية معقوفة، كما تكوّنت من خلالها أوراق ثلاثية الفصوص و أشكال قلبية. أما بالنسبة للغطاء فيتوسطه زهرة ثمانية البتلات منقّذة بطريقة هندسية وفق المادة. حدّدت أطر الصندوقة بسلسلة من الخطوط المائلة والمتوازية المتناوبة مع خطوط أفقية.

نفّذت الزخارف بتناسق و إتقان كبيرين، كما راعى الفنان تماثل الأشكال و تناظرها و الاعتناء بتناسبها والدقة العالية في تحديدها بالأسلاك المعدنية التي زادت التحفة بهاء و جمالا، لكن و للأسف تعرّضت التحفة للإهمال و أتلفت بعض الأجزاء منها كقطع الصدف و الأسلاك و الخشب.

المراجع:

- شريفة طيان، المرجع السابق، ج.2، ص 572-573.



صورة رقم: 9 - صندوقة مستطيلة الشكل من مدينة الجزائر (12- 13 هـ / 18-19 م)

محفوظة المتحف الوطني للفنون و التقاليد الشعبية رقم الجرد: 97 - 90 - 06

تتوعد أشكال الصناديق و أحجامها لاستخداماتها العديدة، وتميزت باستعمال الأصباغ والتذهيب ذات جودة عالية بالإضافة إلى استعمال الصدف و العاج كمواو تنفذ في أسلوبى التطعيم و الترسيع.

و بالنسبة للزخارف النباتية المستعملة بصورة كبيرة في جل التحف و القطع فقد استعملت كل الأزهار بعناصرها أو بدونها، منفردة أو بسيقانها و أوراقها و وريقاتها، بالإضافة إلى أشجار السرو والنخيل و الفواكه المرسومة بتناسق كبير راعى فيها الفنان التماثل و التكرار منفذة بأساليب محورة أو طبيعية أو ممثلة. لقد استلهم الفنان الجزائري العناصر النباتية الزهرية و المشجرة من طبيعة الحدائق والبساتين التي تنمو بها الأشجار المثمرة و الأزهار و الورود طول أيام السنة، و بذلك حقق الفنان عنصري التوازن و الانسجام في التكوين العام.

فيما يتعلق بالزخرفة الحيوانية فقد رسمت بطريقة ملفتة للانتباه فوجود اليمامة مثلا (رمز الحب والسلام) جنبا إلى جنب مع السنونوة (التي ترمز بدورها إلى الشرف و الحماية) في صندوق خاص بالعروس دليل تكملة بعضهما البعض و أنهما رسما للرمزية و للزخرفة .

أما بالنسبة لرسم عنصر السمكة في صندوق العروس دون غيرها من التحف، فهي دليل للتبرك للعروسة بكثرة الأولاد و التمني لها بالحياة الهنيئة و الرفاهية و الازدهار. أما وجود اليمامة و السمكة معا في رسم واحد فيدلان على طرد الشر و الحسد بالحب، و بالتالي فإن هذه الزخارف رسمت لملء الفراغ و توضيح الغرض منها، كمعرفة وظيفة التحفة نفسها من جهة و الانتماء الاجتماعي للشخص من جهة ثانية.

و فيما يخص الببغاء فقد رسم بأسلوبين مختلفين، رسم في الأسلوب الأول واقفا بكبرياء دون حركة مديرا رأسه إلى الراء و بمنقاره زهرة اللؤلؤ، أما الأسلوب الثاني فقد رسم جسمه منحنيا يبدو فيها متحركا و مديرا رأسه إلى الراء و يلتقط بمنقاره زهرة اللاله. يرمز الببغاء إلى الفضول، يبدو ذلك جليا خاصة في إدارة رأسه إلى الخلف و كأنه يريد البحث أو رؤية شئ.

مما تجدر الإشارة إليه أن الأسلوب الهندسي المستخدم في زخرفة قطع الخشب لم يكن في غالب الأحيان موضوعا زخرفيا قائما بذاته لأنه يشترك مع المواضيع الأخرى النباتية و الحيوانية، بحيث يستعمل في غالب الأحيان كإطار يحدد الموضوع الرئيسي.